فقه جماعات التطرف الفكري جهل وتجاهل للقرآن والسنة

الأستاذ الدكتور/ عبد الفتاح مصطفى غنيمة

عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

مصر

جماعات التطرف والإرهاب شرذمة شاردة عن نهج الدين الحنيف، كانت إلى عهد قريب محدودة الأثر والخطر، إلا أنها تحاول الآن التسلل إلى كل أقطار العالم ، وحسبنا ما يسمى ادعاءً الإسلاموفوبيا في أقطار أوروبا والولايات المتحدة، والتي انعكست آثارها البالغة على المواطنين المسلمين في هذه الأقطار وغيرها، والواقع أن الإرهاب هو الراعي الرئيس للإسلاموفوبيا، وهو الذي يرضعها كل يوم الكراهية للإسلام والمسلمين، وقد أكدت الدراسات العالمية أن الإرهاب والتطرف الفكري والديني صناعة بعض إدارات المخابرات العالمية خوفًا من المد الإسلامي في كل بلاد العالم .

فقه جماعات التطرف الفكري :

قد يبدو غريبًا هذا التطرف الفكري من جماعة يدَّعون انتماءهم للإسلام ، ويصفون أنفسهم بالاجتهاد، والغرابة تفسر ببعض ما وقعوا فيه من أخطاء منهجية أدت بهم إلى ما يثير الغرابة ، ومن هذه الأخطاء :

١- جهلهم بطبيعة النص الديني :

من المقرر أن لكل نص طبيعته ولغته التي صيغ بها ، وأن المنهج يقضي ضرورة مراعاة قارئ النص لهذه الطبيعة، ومراعاة اللغة في قواعد دلالاتها ومعانيها؛ لكي يستكشف ما في هذا

النص من معانٍ يستفيد بها ويوظفها في بابها ، وإذا كانت هذه قاعدة منهجية في قراءة أي نص، فإن النص الديني له طبيعته الخاصة، وهو أنه نصٌّ مرسل يحمل جملة من المعاني المتعلقة بالوجود والحياة ، نزلت لتبلَّغ للناس ليفهموها ويعملوا بها ثم يحاسبوا عليها، وفي الوقت ذاته هذا النص عُبر عنه بلغةٍ لها قواعدها وضوابطها في تأدية المعاني، ومقتضى هذا أن قراءة هذا النص تكون قراءة استكشافية لما فيه من معان وأحكام، لا قراءة أمزجة يفرض القارئ فيها مزاجه وهواه .

وهذا ما غاب عن قراءة هؤلاء للنص الديني، بل تعاملوا معه كما لو كان نصًّا بشريًّا مهدرين طبيعة أنه وحيٌ من عند الله، ومجاوزين في كثير من الأحيان طبيعة لغته بقوانينها وضوابطها ، وقد أوقعهم هذا في مزالق خطيرة، بعضها خاص بالنظر إلى النص، وبعضها خاص بتفسيرات فلسفية للغة النص .

ولا غرابة في فهم تلاميذ المستشرقين الذين قالوا بأن القرآن نتاج بشري لمحمد[1]؛ فأحدهم يقول : "إن الوحي بالمعنى واللفظ من عند محمد ﷺ بصفته البشرية" ، بل وأكثر من هذا يقول : "وعلى افتراض أن اللفظ وحي فقد طاله التغيير؛ لأن وعد الله بالحفظ خاص بالمعاني دون الألفاظ" [2].

وهذا الجهل بطبيعة النص أدى إلى ما تحدثوا عنه من تاريخية النص وظنّية دلالاته، وتأثير الواقع عليه بشكل يجعله صدى لمزاج البشر، وكلها أمور خاطئة كانت في فكرهم نتيجة لعوامل كثيرة في تكوينهم الفكري الذي كان من أبرز ملامحه: ضعف ثقافتهم الشرعية؛ التي جعلت من اليسير عليهم أن يعرضوا عن دلالة إجماع الأمة ، وإجماع العلماء عبر الأجيال المتتابعة حتى يومنا هذا .

٢- تأثير مسلمات الفكر والثقافة الغربية عليهم :

إن تشبع هؤلاء بالفكر والثقافة الغربية التي تربوا عليها جعلهم يؤمنون بمسلماتها وفلسفتها، ويرون ضرورة إسقاطها على النص الديني ، فمثلاً فكرة التغيير المطلق التي ابتنت

عليها الفلسفة الغربية في تقديرها للطبيعة البشرية كما بدا في نظرية التطور الداروينية، وفي تقديرها للقيم الإنسانية كما بدا في المذهب الأخلاقي الاجتماعي، هذه الأفكار أسقطها هؤلاء على النص الديني؛ فذهبوا إلى أن النص لا يحمل قيمًا موضوعية ثابتة، وإنما قيمه تتغير بتغير الظروف والأوضاع.

٣- إسقاط جهلهم على النص الديني:

بمعنى أنهم يرون أن الدين شأن شخصي لا علاقة له بإدارة الحياة للفرد أو المجتمع، وما يوجد في القرآن أو السنة من نصوصٍ تشرِّع لهذا فلتؤول عندهم ليسقطوا جهلهم عليها، وتبعد عن إدارة الحياة وضبط سلوكياتهم فمثلاً يقول أحدهم – وهو يطبق هذه القاعدة، وهو بصدد تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[٣] : إن فض النبي ﷺ في المنازعات كان مجاراة للعادة العربية حيث لا سلطة مركزية ، وهذا إجراء مؤقت ، فإذا وجدت السلطة المركزية لم يعد لهذا التحكيم علاقة بالإيمان[٤].

وهذا التأويل به من الخطأ ما يخرج صاحبه من زمرة المدققين ، فلغة الآية "شَجَرَ" تدل على كل العلاقات وليس على المنازعات وحدها ، ثم إن الآية نزلت في وجوب طاعة الأنبياء، ولا علاقة لها بوجود سلطة مركزية أو عدمه ، بل هي مقياس للإيمان بما جاء به الأنبياء من عند الله[٥].

وقس على هذا التأويل المتعسف كل ما تعرضوا له من آيات أحكام تتعلق بالأسرة أو بالحدود أو العبادات ونحوها .

وبعد ... فقد قدَّم هؤلاء المؤولة الدليل على تطرفهم الفكري في تعاملهم مع نصوص الكتاب والسنة واجتهادات ثقات العلماء، وما ظنوه دليلاً جديدًا واجتهادًا وفهمًا للإسلام حقًا يخالفون به الفهم التقليدي ، هو عند النظر العقلي دليل ضدهم، ووَصْمٌ لهم بأن انتماءهم للإسلام وخدمة الدعوة والاجتهاد والبحث العلمي كلمات لا تتسم بالحق ويُراد بها باطل .

الإرهاب ظاهرة دولية :

إذا كنا نحاول أن نقف على ظروف فكر التطرف وما يؤدي إليه فإن ذلك يعني أن المحاولة إنما هي من منطلق أن الإسلام لا يقبل هذا الفكر أو آثاره على كل بني البشر، باعتبار أن الإسلام رحمة للعالمين ، وليس من منطلق أن الإرهاب أمر يخص المسلمين أو يرتبط بدينهم، كما حاولت بعض وسائل الإعلام الغربي أن تصور الأمر هكذا، ملتمسة الدليل في أخطاء البعض ممن ينتسبون إلى الإسلام ، والإسلام من أخطائهم في الفكر والسلوك براء.

من الحقائق المقررة أن الإرهاب ظاهرة إنسانية على مدار التاريخ الإنساني، ومنطقي أن يكون الإرهاب غير مرتبط بدين منزل؛ لأن حقيقة الأديان السماوية تركز على إصلاح حياة البشر، وتوفير الأمن والاستقرار لهم ، فإذا عرفت البشرية خلاف هذا ممن ينتسبون إلى دين سماوي فاعلم أنهم يمثلون أنفسهم لا دينهم بخطئهم وجهلهم وإضرارهم بغيرهم.

التكفير والهجرة :

التكفير والهجرة نهج اتخذته الجماعات المتطرفة، وتسمت به جماعة تدَّعي الإسلام، نهجت نهج الخوارج في التكفير، واتخذت طابع السرية في العمل، الأمر الذي حَافَظَتْ به على وجودها إلى حين، ولكنه وجود غير مؤثر ولا ملحوظ، حيث يكفرون المجتمع بجميع طوائفه وفئاته، وعلماء الدين وكل من عرضوا عليه فكرهم فلم يقبله، أو قبله ولم ينضم إلى جماعتهم ، ويكفرون من ينضم إليهم ثم يتركهم، كما يكفرون كل من يأخذ بأقوال غيرهم من الأئمة، أو بالإجماع حتى لو كان إجماع الصحابة، أو بالقياس أو الاستحسان، فهو في نظرهم مشرك كافر .

والهجرة في اعتقادهم هي العنصر الثاني للجماعة ، ويقصد بها العزلة عن المجتمع؛ حيث إن كل المجتمعات حولهم جاهلية، والعزلة عندهم عزلة مكانية وشعورية، ولا قيمة عندهم للتاريخ الإسلامي، ولا قيمة أيضًا عندهم لأقوال العلماء والمحققين وما هو مسطور من فكر صحيح في أمهات كتب التفسير والعقائد؛ لأن كبار العلماء القدامى والمحدثين بزعمهم مرتدون عن الإسلام .

وقد حَمَّلُوا بجهلهم ألفاظ القرآن الكريم ما يوافق أهواءهم، ودعوا إلى الأمية وترك المعاهد والمدارس والكليات .

ويرجع أساس جميع ما تقدم إلى ضعف البصيرة بحقيقة الدين، وعدم فهم النصوص، والإسراف في التحريم، والتباس المفاهيم وتمييع العقيدة، واتباع المتشابهات، وضعف المعرفة بالتاريخ والواقع وسنن الكون والحياة، وعدم معرفتهم بمنهج أهل السنة والجماعة .

من هناك دخل إلى ميدان التحدث باسم الإسلام كل ناعق وناهق ، فصدّر من الفتاوى ما لا يتفق وتعاليم الإسلام السمحة ، فهو يُحلّل ويُحرّم حسب ثقافته الضالة الضحلة، وطبقًا لتوجهات الجماعة المنحرفة عن منطوق النصوص الإسلامية المُوصى بها من السماء.

بين الفكرين القديم والجديد:

يلحظ القارئ أن هناك قواسم مشتركة بين فكر الخوارج وفكر التطرف المعاصر ، فهل قرأ هؤلاء فكر الخوارج وتمثلوه وخططوا لأنفسهم بناءً على معطياته ؟ الواقع أنه ليس عندنا نصوص تجزم بهذا، لكن ذلك لا ينفي احتمال قراءتهم لفكر الخوارج وتاريخهم كغيرهم من المسلمين الذين أتيح لهم هذا ، وإن كنت أستبعد أنهم خططوا لفكرهم الضال المضل؛ لأن فكرهم كان يتطور عشوائيًّا بنسبة كبيرة، ويمكن أن نذكر بعض القواسم المشتركة بينهما، مثل:

١- ضعف الفقه الشرعي وقلة الخبرة والممارسة.
٢- عدم وجود مرجعية علمية من علماء العصر قديمًا وحديثًا .
٣- الانقسام فيما بينهم؛ بما يشير إلى عدم وجود خط جامع لهؤلاء وأولئك .
٤- عدم قبول الحوار بحثًا عن الحقيقة ، حدث هذا عند الخوارج مع ابن عباس ، وحدث عند المعاصرين حيث لم يقبلوا من حاورهم للرجوع عن التكفير .
٥- غياب مصلحة الأمة ، فالخوارج لم ينشغلوا بمصلحة الأمة بقدر ما انشغلوا بالتعصب لآرائهم في مسألة التحكيم قبله وبعده ، والمعاصرون لم يقوموا بواجب الدعوة على حقيقة الفهم الشرعي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما فهموا هذا الأمر بطريقتهم الضالة حتى ولو لم تحقق مصلحة الأمة .

الإسلام – المفترى عليه – دين للحياة :

التدين في جوهره سر بين العبد وربه ، لا يطلع عليه إلا الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهناك كثير من الناس متدينون يحسبهم الجاهل– المهتم بالمظاهر الشكلية– بعيدين عن الدين؛ لأنهم يعيشون حياتهم على نحو عادي في ملبسهم ومطعمهم ومسكنهم، فى حين أنهم لا يؤذون أحدًا وملتزمون بواجباتهم الدينية دون إعلان .

هناك فريق من الناس – من الجاهلين بحقيقة الدين – يعتبرون أنفسهم متدينين لتمسكهم الظاهر بأمور شكلية لا صلة لها بجوهر الدين ، وحرصهم الشديد على أن يضفوا على أنفسهم جوًّا مظهريًّا يوحي بالتدين ، فاللحية تطول إلى أقصى حد، والثياب قصيرة، والمسبحة لا تفارق أيديهم، والحوقلة والبسملة تنساب من أفواههم بمناسبة ودون مناسبة، والتشدد المفرط في صغائر الأمور الدينية هوايتهم المفضلة، وهذا هو مبلغهم من التدين الذي هو أمر باطني لا صلة له بهذه المظاهر التي قد تكون خادعة في أحوال كثيرة.

ولو اقتصر الواحد من هؤلاء الجاهلين المتشددين على الاهتمام بنفسه وترك خلق الله يكيفون حياتهم على النحو الذي يريدون – طالما أنهم لا يخرجون في تصرفاتهم عن جوهر الدين – لما كانت هناك مشكلة ، ولكن المشكلة أن هؤلاء يريدون أن يحملوا الآخرين على الاقتداء بهم في مظهرهم والانخراط في دائرتهم المتشددة المتطرفة، ونشر هذا التشدد بين الناس باسم الدين، وهذا هو الأمر المرفوض ، ومن هنا رفض النبي ﷺ التشدد في الدين قائلاً : " لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم"[٦]، وقال ﷺ : " إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه" [٧].

الإسلام دين الوسطية والاعتدال :

مدح الله ﷻ التوسط في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا

عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٨]، وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[٩]، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[١٠] ، وقوله تعالى : ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[١١] .

وقد اختص الله الأمة الإسلامية بالوسطية لأنها الأمة التي اختصها بالرسالة الخالدة التي ختم الله بها كل رسالاته السابقة .

والوسطية الإسلامية لها معانٍ عديدة، ومن هذه المعاني: العدل ، ومن هنا كانت الأمة الإسلامية شاهدة على البشرية كلها بهذا المفهوم ، وقد ذكر المفسرون فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾[١٢] أي أعدلهم، ومن معاني الوسطية أيضًا: الاستقامة، أي استقامة المنهج والبعد عن الميل والانحراف، كما تعني الوسطية أيضًا الخيرية، فخير الأمور الوسط ، وقد تمثلت الوسطية الإسلامية في أمور عديدة ، في مجال الاعتقاد، ومجال الشعائر والعبادات، ومجال الأخلاق، وفي مجال العقل، وفي مجال التشريع.

والإسلام في جوهره دين الوسطية والاعتدال، لا يطلب من أتباعه أن يعملوا للدنيا على حساب الآخرة ، ولا للآخرة على حساب الدنيا ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[١٣] ، ومن المرويات في هذا الصدد: أن ثلاثة من الصحابة ذهبوا إلى بيت النبي ﷺ يسألون عن عبادته ليقتدوا بما يفعل ، فلما حُكِي لهم ما يفعله النبي ﷺ كأنهم تقالُّوها، أي اعتبروها قليلة بالقياس إلى ما يفعلونه، فقال أحدهم: إنه يصلي الليل كله ولا يرقد، وقال الثاني: إنه يصوم ولا يفطر، وقال الثالث: إنه يعتزل النساء ولا يتزوج ، وعندما سمع الرسول ﷺ مقالتهم خرج إليهم وقال : " لكني أصلي وأنام ، وأصوم

وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[١٤].

وهناك وجه آخر لهذا التشدد الممقوت يتمثل في الميل إلى الإفراط في تحريم مباهج الحياة التي يسميها القرآن " الطيبات من الرزق "، لدرجة أن هؤلاء المتشددين يجعلون من الإسلام قائمة طويلة من المحرمات، ويجعلون من الدين عدوًّا للحياة ، فالتدين لدى هؤلاء صنو للتجهم والكآبة، ورفض لكل ما يدخل السرور والبهجة على حياة الناس، على الرغم من أن التحريم في الإسلام لا يكون إلا بنص صريح لا يقبل التأويل.

ويرجع السبب في ذلك كله إلى ضيق الأفق، ومحدودية الثقافة، وقلة المعارف الدينية، وقلة الفقه بالدين لدى هؤلاء العابثين بدين الله، الذي لم يعطهم توكيلاً ليكونوا متحدثين رسميين باسم الدين ، وليكونوا أوصياء على الآخرين يكفرون هذا، ويحكمون بالفسق أو الابتداع على ذاك، ويعطون لأنفسهم الحق في الحكم بطرد هذا أو ذاك من رحمة الله جهلاً منهم وافتراء.

رسالة الإسلام رحمة للعالمين :

إن الدين أرحم من هؤلاء بعباد الله ، فرسالة الإسلام جاءت في الأساس رحمة للعالمين بنص القرآن الكريم مخاطبًا النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[١٥] .

والقرآن يفتح باب الأمل على مصراعيه أمام كل الناس في قوله تعالى : ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[١٦] .

إن التمتع بمباهج الحياة والطيبات من الرزق من الأمور المقررة في الدين ، وليس من حق أحد أيًّا كان أن يعطي لنفسه الحق في تحريم ما أحل الله ، ومن أجل ذلك يستنكر القرآن الكريم صنيع هؤلاء الجاهلين وأمثالهم يقول تعالى : ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ

نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[١٧] ، ويؤكد القرآن الكريم رفضه القاطع تحريم ما أحله الله لعباده من طيبات الحياة، يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[١٨].

وطيبات الحياة ومباهجها من نعم الله ﷻ على الإنسان التي تستحق الشكر عليها، والرسول ﷺ يقول : " إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"[١٩]، فمن حق كل إنسان أن يتمتع بما أحله الله له في مطعمه وملبسه ومسكنه ، ومن حقه الاستجمام من عناء العمل، والترويح عن النفس لطرد الملل والسآمة عن حياته ، ومن هنا كان قول النبي ﷺ : " روحوا القلوب ساعة فساعة " [٢٠] أي أريحوها باللهو المباح حتى تنشط استعدادًا لاستئناف العمل من جديد ، فالقلوب تصاب بالملل والسأم كما هو الشأن كذلك بالنسبة للأبدان ، كما ورد أيضًا عن الإمام علي كرم الله وجهه : " إن القلوب إذا كلت عميت "، ومن أجل ذلك فإنها في حاجة ماسة إلى الترويح الذي يزيل عنها هذا الملل ، ويبعث فيها الحيوية والنشاط من جديد حتى تصبح قادرة على مواصلة مسيرة الحياة يقول النبى ﷺ: " فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى " [٢١].

وقد سمح النبي ﷺ للسيدة عائشة – رضى الله عنها– أن تشاهد الأحباش وهم يؤدون بعض الألعاب في المسجد النبوي ، وذات يوم دخل النبي ﷺ على عائشة – رضى الله عنها – وكانت تزف جارية يتيمة لديها لرجل من الأنصار، فلم يسمع شيئًا يوحي بالفرح الذي هو سمة مثل هذه المناسبات، فقال ﷺ : " هلا بعثتم معها من يغنيهم يقول : أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم ، فإن الأنصار قوم فيهم غزل (وفي رواية أخرى) قوم يحبون الغناء"[٢٢].

ولقد استمع النبي ﷺ للشعر الذي تضمن شيئًا من الغزل، فلم ينكر ذلك انطلاقًا من أن الإسلام لا يمكن أن يصادر العواطف والمشاعر الإنسانية الرقيقة ، ومن ذلك ما أنشده كعب بن زهير أمام النبي ﷺ من قصيدته التي أراد بها أن يستعطف النبي ﷺ للعفو عنه، والتي جاء في مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

وكان الرسول ﷺ بَسَّامًا ضاحكًا كما تروي عنه السيدة عائشة – رضي الله عنها– وكان يمزح ولا يقول إلا حقًّا، ولكن غلاظ القلوب ومتبلدي الإحساس يريدون أن يحملوا الناس على الاقتداء بهم ، وليتهم يقرأون قول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢٣] .

إن الجهل آفة من الآفات التي تجعل صاحبها ينفر الناس من الدين، ويصدهم عن سبيل الله بما ينشره من غثاء لا صلة له بالدين، وبدلاً من أن يستر الجاهلون جهلهم يتبجحون به على الناس، دون حياء، لا من الله، ولا من رسوله، ولا من المؤمنين.

وما يفعله هؤلاء هو التنطع بعينه ، والمتنطعون هم المتشددون المتقعرون الذين يفسدون على الناس سماحة الدين ويسره وبساطته ، ويدسون أنوفهم في كل صغيرة وكبيرة في حياة الناس ليسدوا أمامهم أبواب الأمل ، ويضيقوا عليهم رحمة الله الواسعة، وقد توعد النبي ﷺ هؤلاء المتنطعين بالهلاك في قوله ﷺ : " هلك المتنطعون" وكررها ثلاثاً "[٢٤].

إن الله وحده هو المطلع على القلوب، وهو وحده الذي سيفصل بين الناس يوم القيامة ، وعلى هؤلاء المتنطعين أن يكفوا عن شغل المسلمين بصغائر الأمور في الوقت الذي يصارعهم فيه الآخرون في عظائم أمورهم وفي قضاياهم المصيرية .

وليس هناك من شك في أن التدهور في الفكر الديني – والذي تتسبب فيه الجماعات المتطرفة– من شأنه أن يصرف المسلمين عن الاهتمام بأمور الدنيا التي خلقها الله لنا؛ لنعمرها بالعلم، ونبنيها بالعمل ونثريها بالخير، وننشر فيها الأمن والسلام والاستقرار ، وعلى هؤلاء العابثين في وقت الجد أن يفيقوا من غفوتهم، ويثوبوا إلى رشدهم، ويعلموا أن الدين للحياة، وليس عدوًّا للحياة كما يتصورون .

الهوامش:

(١) مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، ترجمة/ عبد الصبور شاهين ط ٤ ، دار الفكر ، بيروت ١٩٨٧م، ص ١٤٣، ومحمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم ، دار القلم ، الكويت ١٩٧٠م، ص ٣٦.

(٢) عبد المجيد الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتأريخ، ص ٣٧-٥٠.

(٣) النساء : ٦٥ .

(٤) عبد المجيد الشرفي، الإسلام بين الرسالة والتأريخ، ص ٧٩.

(٥) عبد المجيد النجار ، القراءة الجديدة، ص ١٠٧، ولمزيد من التفاصيل وكشف أباطيل هؤلاء المؤولة انظر النجار : ص ٩٣-١٥٣.

(٦) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب الحسد، حديث رقم ٤٩٠٤ .

(٧) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، حديث رقم ٣٩ .

(٨) البقرة : ١٤٣ .

(٩) الفرقان : ٦٧ .

(١٠) الإسراء : ٢٩ .

(١١) الأعراف : ٣١-٣٢ .

(١٢) القلم : ٢٨ .

(١٣) القصص : ٧٧.

(١٤) متفق عليه .

(١٥) الأنبياء : ١٠٧.

(١٦) الزمر : ٥٣ .

(١٧) الأعراف : ٣٢ .

(١٨) المائدة : ٨٧ .

(١٩) سنن الترمذي، أبواب الأدب، باب ما جاء أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، حديث رقم ٢٨١٩ .

(٢٠) مسند الشهاب القضاعي، ٣٩٣/١ ، حديث رقم ٦٧٢.

(٢١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، ٣ / ٤٠٢ .

(٢٢) السنن الكبرى للبيهقي، جماع أبواب صلاة التطوع، باب القصر فى العبادة، حديث رقم ٤٧٤٣.

(٢٣) آل عمران : ١٥٩.

(٢٤) صحيح مسلم ، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، حديث رقم ٢٦٧٠.